مقاربات معرفية لمشكلة الانتحار

أ. نابي بوعلي،
أستاذ مكلف بالدروس، قسم الفلسفة،
معهد العلوم الاجتماعية و الإنسانية،
المركز الجامعي معسكر.

المدخل:

لقد تعددت الأطروحات والمقاربات، التي تناولت مشكلة الانتحار، ومع تعددها تعددت كذلك مناهج البحث، وتباينت الرؤى والاستراتيجيات المقترحة للبحث عن أسبابه العميقة التي يعتقد أنها تقف وراء هذه الظاهرة للتقليل منها وعلاجها ومعرفة أسرارها للحد منها، ولعلّ من أسباب هذا التعدد كون الانتحار يمس جوهر الوجود الإنساني، لذلك فهو يحظى باهتمام كبير في مختلف الدوائر العلمية والأوساط الفلسفية والدينية، فليس غريبا إذن أن تختلف المواقف، وتتنوع التحاليل حول هذه المشكلة المعقدة.

ملاحظات أولية:

تقوم دراسة ظاهرة الانتحار على مقاربتها من جانبين هما:

الجانب الأول: نظري ويشمل الجوانب الفكرية والفلسفية والدينية للظاهرة.

الجانب الثاني: يشمل الجوانب الواقعية الحقلية والإحصائية الميدانية للظاهرة.

أغلب الدراسات لظاهرة الانتحار تتميز بالتكرار، وتحيل إلى الجانب الديني في نهاية المطاف.

ما الانتحار؟

بادئ ذي بدء لابد أن نقف عند تعريف الانتحار، حيث يمكن أن نستعمل العديد من المفردات والحدود اللغوية، التي تشير جميعها إلى المعنى العام للانتحار، ولا تثير أي غموض أو لبس في المعنى الظاهري عند القارئ، كأن نقول:الانتحار، أو الموعد مع الموت، التنازل عن الحياة، الموت الحر، مغادرة الحياة بطريقة إرادية حرة، الحق في إنهاء مشروع الوجود، الموت البخس وغيرها من الألفاظ الدالة على الانتحار.

إن منطلق التفكير في مشكلة الانتحار، تبدو في تلك المفارقة الغريبة التي يلاحظها الجميع، حيث يقف الناس في هذه الحياة موقفين متناقضين، بين من يتمسك بالحياة ويتشبث بها، ويبذل كل ما باستطاعته من أجل المحافظة على حياته من الأمراض والأخطار، وكل ما يهدد سلامة وجوده ويحفظ بقاءه، إنها باختصار تعلق الإنسان بحياته من مبدأ إرادة الحياة، بينما نجد بالمقابل من يسترخص الحياة، ويتنازل عنها دون أدنى وازع ديني أو اجتماعي أو أخلاقي، ويضحي بكل شيء يشكل أبعاد الإنسان المختلفة كالعقل والإحساس والرغبة والإرادة، هذه الأبعاد التي تضعف وتزداد ضعفا من خلال فقدان الإنسان لنفسه في الواقع الذي يسحقه سحقاومن هنا يصاب الإنسان بوهن في قوة ذاته بسبب صعوبة التوفيق بين مثالية نفسه وبين واقعه المزدرى المرفوض، مما يولد لديه انطباعا منحرفا عن الحياة، لاسيما إذا اشتدت عليه الظروف وتضاعفت قساوتها ومرارتها كالمعاناة والبؤس والنوائب والشدائد، وأصناف العذاب، وهي بطبيعتها تدفع إلى اليأس والقنوط، وهو ما يجعل الإنسان يعلن العصيان في وجهها ،ويحاول أن يتمرد عنها بعدما تتزعزع ثقته في وجوده ومستقبله، وهذا ربما ما يجعل الإنسان تحركه وتراوده أفكار الانتحار.

وإذا كانت الدراسات الاجتماعية والنفسية والفلسفية وغيرها من المقاربات التي تناولت الانتحار بالدراسة والبحث فإنها لم تتفق حول ما إن كان الانتحار مشكلا أم ظاهرة اجتماعية أم لغزا محيرا يستعصى معه الوصول إلى جواب محدد وواضح. ولذلك ومع هذه الاختلافات نتساءل: هل يمكن تقديم تعريف للانتحار؟

هناك تعاريف متعددة للانتحار، تختلف باختلاف النظرة والتخصص، ولكن هناك مفاصل وقواسم مشتركة تشير بشكل عام، إلى أن الانتحار هو إنهاء حياة الشخص بنفسه بطريقة إرادية وهو يعلم نتيجة فعله، باعتبار الانتحار حالة معزولة لا يتحمل تبيعاتها إلا صاحبها بوصفه المسئول المباشر عنها،بالرغم من وجود بعض حالات الانتحار التي يتلقى فيها المنتحر التحريض والمساعدة من الغير على ارتكاب فعلته.

ويمكن أن نشير إلى بعض التعاريف الخاصة بمشكلة الانتحار وهي كما يلي:

1 هو كل سلوك يحاول به المنتحر وضع حد لحياته بطريقة إرادية حرة، وهو يعلم نتيجة ذلك.

2 هو الفعل المدروس والمبيت لإيذاء الذات.

وهنا ينبغي أن نميز منذ البداية بين الشخص الذي يحاول الانتحار، مقابل الشخص الذي ينتحر فعلا.إن الشخص الذي يتظاهر بالانتحار يحاول من خلال هذا السلوك لفت الأنظار إليه، ممن حوله من أفراد الأسرة والأصدقاء خاصة إذا أحس بنوع من التهميش، وأنه لا يلقى الاهتمام اللازم من الآخرين المحيطين به. وهذه طريقة معروفة عند علماء النفس لإثبات ألذات، من خلال ما يطلق عليه أحلام الاستشهاد التي يتصور الإنسان فيها نفسه، وقد حلت به المصائب والنكبات، مما يجعل الناس يسارعون إليه، ويتعاطفون معه، ويقدمون له كل أشكال المساعدة والدعم اللازمين للخلاص وللخروج من أزمته المؤقتة.

تعتبر مشكلة الانتحار من أكثر المشكلات الإنسانية التي نالت قدراً كبيراً من البحث والدراسة، فهذه المشكلة قديمة قدم البشرية، ولقد اعتبر الفلاسفة اليونان الانتحار عملا غير أخلاقي، يضر بالأسرة والمجتمع، لأن كل فرد تحتاجه أسرته ومجتمعه، ولا تزال مشكلة الانتحار مستمرة مادام الإنسان مستمرا، وتفيد الدراسات الحديثة التي تنشرها الوكالات التابعة للأمم المتحدة أن نصف مليون شخص يموتون سنوياً في العالم نتيجة للانتحار وبمعدل منتحر لكل دقيقة تمر، ومعدل الانتحار السنوي هو معيار للدلالة على مدى انتشار الانتحار في مجتمع ما، وأشارت نفس الدراسات أيضا إلى تزايد نسبة الانتحار بين فئة الشباب، حيث يعد الانتحار من الأسباب الثلاثة الرئيسية للوفيات بين فئة الشباب. وهذا يدل على تفاقم هذه المشكلة وتزايد مشكلات الشباب التي تؤدي إلى الانتحار.

والانتحار كظاهرة، تنتشر وتمس بنسب متفاوتة جميع الفئات، المدنية والعسكرية، والطبقات والشرائح الاجتماعية والأعمار في كل المجتمعات، الريفية منها و المتحضرة، وتتكرر أشكاله عبر كل الحقب التاريخية القديمة والحديثة،لا فرق في ذلك بين صغير وكبير، جاهل أو متعلم غني أو فقير...

وتشير كذلك الدراسات التي تتناول مشكلة الانتحار إلى تعدد الأسباب الاجتماعية والدوافع السيكولوجية التي تسمم حياة الناس كالفقر والبطالة والتشرد والتفكك الأسري، والتي يصعب إحصاؤها وتتبعها و إيجازها جميعا هنا، أو ربما في أي مكان آخر. وكل الدراسات القديمة و الحديثة

تؤكد على أهمية تظافر هذه الأسباب و الدوافع التي تدفع الشخص إلى الانتحار، ومن ثم حاولت العلوم، والعلوم الإنسانية على وجه التحديد دراسة مشكلة الانتحار لمعرفة هذه ألأسباب من جهة، ومن جهة ثانية محاولة دراسة شخصية المنتحر و تشريحها من جوانبها الاجتماعية و النفسية والأخلاقية و الدينية لمعرفة تركيبتها، ولاسيما وأن بعض الدراسات النفسية تشير إلى وجود ما يسمى بنموذج الشخصية المنتحرة، حتى تقف على الأسباب الفعلية التي تجعل المنتحر يقدم على تنفيذ ما يريد تنفيذه.

غير أن هذه الآراء وان اتفقت على القول بأن الانتحار ظاهرة سلبية تسيء إلى سمعة المجتمع، وتضر بالفرد والأسرة، فإن العلوم تختلف في تفسير أو ربما في تبرير أسباب الانتحار حسب الاختصاصات، حيث نجد على سبيل المثال:

1- المقاربة النفسية:

وهي التي تقدم تصورا خاصا لتفسير السلوك الانتحاري من خلال حصر مجموعة من الأسباب نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر ما يلي:

إن الإحساس باليأس الذي هو مرض الروح الناتج عن فقدانها لاحتياجاتها الأصلية، هو الذي يقود الشخص إلى الانتحار، وقد تناول الفيلسوف سورين كير كيجرد مسألة يأس الضعف بالنسبة للإنسان الذي يريد أن يهرب من نفسه، لأنه يريد نفسا أخرى تمثلها في عقله، وبالتالي يصبح غريبا عن نفسه التي يريد التخلص منها وحينئذ يكون على شفا الانتحار(1).

إن الإخفاقات المتتالية في حياة الشخص، الذي لا يجد في غالب الأحيان الاحترام المطلوب من قبل الآخرين، فتتزعزع ثقته في نفسه ويتورط في جريمة الانتحار، فالإخفاق العاطفي والاضطرابات النفسية، والإحساس بأن الحياة تافهة لا معنى لها، وأغلب هذه الأسباب متولد عن مظاهر التشاؤم الشديد وفقدان الأمل في الحياة.

إن ما يجب ملاحظته هنا هو أن الأسباب السالفة الذكر ليست مفصولة عن الواقع الذي يعيشه الإنسان، وعن مفاعيل الزمان والمكان، والحالة السياسية والاجتماعية، الاقتصادية، والثقافية، فهي أسباب متداخلة ومعقدة يصعب عزلها عن بعضها البعض دون إخلال بالدراسة ونتائجها، مما يعني أن الصلة بين الانتحار وأسبابه ليست صلة مباشرة، أو بسيطة، بل هي علاقة معقدة تقوم على وجود عوامل كثيرة، تساهم في تعقيد فهم ظاهرة الانتحار مما يوحي أن الانتحار ليس مجرد مشكل بل هو لغز.

2- المقاربة الاجتماعية: ولعل من أبرز الدراسات حول هذه المشكلة، هي الدراسة التي قام بها عالم الاجتماع الفرنسي إميل دوركايم حيث أشار فيها إلى أن ظاهرة الانتحار هي ظاهرة جماعية تختلف باختلاف المجتمعات رافضا بذلك الادعاء القائل أن الانتحار ظاهرة فردية تعود دراستها إلى علم النفس. وتمثل دراسة دوركايم نموذجا متكاملا للبحث السوسيولوجي، بالرغم من أنها تحمل في أحشائها أبعادا إيديولوجية اصطبغت بها في النهاية(2).

فحسب دوركايم لا يمكن تفسير ظاهرة الانتحار إلا من خلال الأسباب والعوامل الاجتماعية التي أدت إليها، وبذلك استبعد العوامل غير الاجتماعية كالاضطرابات العقلية، والإدمان على الخمور، وارتباط الانتحار بالسلالة و الأعراق، أو الظروف الطبيعية والمناخية، وبذلك وجه الأنظار إلى دراسة

الانتحار في خلايا وصميم الحياة الاجتماعية، وفي طبيعة الحضارة الصناعية المعقدة التي رافقت نمو وتطور المجتمع الليبرالي الأوربي، وما تولد عنها من إفرازات خطيرة انعكست على واقع الناس.

ويتفق هنا دوركايم مع العالم الإيطالي فيري وهو من رواد المدرسة الوضعية الإيطالية التي كان يتزعمها لومبروزو والذي يصر بدوره على أن الجريمة تعود إلى أسباب اجتماعية حيث يقول فيري:"إن العامل الشخصي لا يؤدي وحده إلى الجريمة إلا إذا عاونه العامل الطبيعي و العامل الاجتماعي، مثله في ذلك مثل المادة القابلة للذوبان، لا تذوب إلا في سائل معين، وبتأثير درجة حرارة معينة، وبمعنى آخر، فإن الجريمة نتيجة حتمية لمؤثرات مختلفة لا بد عند توافرها من حدوث أثرها وهو الجريمة".

ويمكن القول أن النتيجة التي توصل إليها دوركايم من خلال دراسته لظاهرة الانتحار تتركز حول ثلاث نقاط أساسية هي: مسألة الترابط الديني، والتماسك العائلي، والاستقرار السياسي للدولة.(3)

أولا بالنسبة للدين كلما كانت قبضة الدين على الأفراد قوية من خلال المراقبة فإن ظاهرة الانتحار تقل.أما السبب الثاني الذي يركز عليه دوكايم فيعود إلى الأسرة، فكلما كانت الأسرة متماسكة قلت ظاهرة الانتحار وكلما كانت مفككة وأفرادها مشردين ازدادت نسبة الانتحار. وثالثا ما يقال عن الأسرة يصدق على الدولة كذلك، فكلما كانت الدولة قوية بمؤسساتها وهياكلها قلت ظاهرة الانتحار، وكلما تزعزع كيانها وتفككت أوصالها ارتفعت نسبته.

إن تحرير الإنسان من البؤس والاغتراب الاجتماعي والسياسي والقيم المزيفة يمنح للإنسان فرصة البحث عن ألذات من أجل تكوينها على اعتبار أنه مجرد مشروع وجود يسعى على الدوام لتشكيل نفسه عبر الاختيارات التي يتقدم بها إلى الآخرين من حوله في إطار الفعل الحر،ولذلك فالبطالة والتشرد والتفكك العائلي والضغوط الاجتماعية وأثر المحيط، كلها عوامل مغذية لانتشار ظاهرة الانتحار.

3- مقاربة الطب النفسي

وإذا كان الطب النفسي يحاول من جهته التوغل في صلب ظاهرة الانتحار وتفاصيله المتشعبة، يؤكد بدوره على أن أسبابه تعود بالدرجة الأولى إلى عوامل نفسية وأمراض عقلية يأتي على رأسها الاكتئاب كعلة مشتركة بين أغلب حالات الانتحار، إلا أنه إذا كنا نوافق على بعض ما جاء به الطب النفسي، فإن تلك الأسباب لن تقود بصورة جبرية إلى الانتحار، إذ إن هناك عددا من الأشخاص الأسوياء الذين ينتحرون دون معرفة السبب الحقيقي الذي دفعهم إلى الانتحار حتى ليمكن القول أن ما نعتقده أسبابا يبقى مجرد فرضيات.

4-مقاربة علم النفس التحليلي

أما سيقموند فرويد ، مؤسس مدرسة التحليل النفسي فقد رأى بأن الانتحار هو توجيه العدوانية الداخلية الكامنة في الشخص ضد نفسه، أي أن هناك أزمة نرجسية يعاني منها الفرد تتجلى في اضطراب التوازن عنده بين العالم المثالي المنشود والعالم الواقعي المعاش. فحينما يحدث هذا التصادم بين ما كان يتصوره من أفكار وآمال ومشاريع وبين الواقع المرّ فإنه ينتقم من نفسه التي سببت له المشاكل و الإحباط لأنه عاجز عن توجيه اللوم إلى غيره من أفراد المجتمع، فيتخلص من ذلك الجحيم الذي يؤرقه من خلال إعدام نفسه بنفسه.

إنّ التحليل النفسي يحاول أن يبحث في دوافع الانتحار، والعوامل التي تتدخل في تحديد هذا السلوك. والتعرف على أهمية الدوافع النفسية الداخلية ومدى علاقتها بعوامل المحيط.

وإذا كانت التفسيرات العلمية تسعى إلى تحقيق الموضوعية و الشمولية و التعميم الذي يفضي إلى التنبؤ، فإن ذلك يصعب تحقيقه في مسألة الانتحار، وإذا كانت التفسيرات العلمية كذلك تستند إلى مبدأ السببية والحتمية الذي يقتضي أن نفس الأسباب و الظروف تعطي دائما نفس النتائج، فهذه القضية متعذرة إذ إن نفس الأسباب والظروف لا تعطي نفس النتائج في مجال الانتحار، فالأسباب التي تدفع بعض الأشخاص إلى الانتحار في مجتمع أو بيئة ما مثلا ليست هي نفس الأسباب والعوامل التي تقود مجموعة من الناس إلى الانتحار في مجتمع أو بيئة أخرى، ولذلك من الصعب التنبؤ بالانتحار وبالتالي فإن من الصعب منع حدوثه، وإلا كيف نفسر استمراره رغم كل الجهود والتدابير المبذولة للحيلولة دون تكراره.

وقد عزى روجيه غارودي الانتحار من بعض الوجوه إلى الثورة العلمية والتقنية وتعقد الحياة الاجتماعية في هذا العصر، وما تولد عنها من إفرازات هائلة تحولت إلى أمراض خطيرة أضرت بالإنسان وبوجوده وبالمحيط إلي يحيا فيه، فالعلم الذي كان يعد الإنسان بأن يصبح بفضل عقله وقدراته المعرفية سيدا للطبيعة على حسب التصور الديكارتي، قد تحول إلى ضده حيث صار الإنسان مغتربا وبعيدا عن فطرته، بل أضحى مجرد رقم في حضارة مادية تسحقه سحقا، يقول روجيه غارودي:"تستطيع الآلات حقيقة، القيام بعمل الإنسان.إنها قادرة على ذلك، ولكن هل تفعل ذلك حقا؟ففي أي عصر ولدت معدلات العمل والنقل وأوقات الفراغ وألوان التلوث أمراضا عصبية وألوان العنف والتعطل الحيوي والهروب إلى المخدرات أو اللجوء إلى الانتحار، وكانت أقدر على فصل الإنسان عن الآخرين وعن نفسه؟".(4)

5- المقاربة الدينية لمشكلة الانتحار:

إن الانتحار في الإسلام جريمة كبرى، فالذي يقتل نفسه فرارا من مصيبة أو ضائقة أو فقر أو نتيجة انفعال أو غضب يحل به، فإنه بهذا الفعل الشنيع يعرّض نفسه لعقوبة الله، فقد قال سبحانه وتعالى: " ولا تقتلوا أنفسكم إن الله كان بكم رحيما. ومن يفعل ذلك عدوانا وظلما فسوف نصليه نارا وكان ذلك على الله يسيرا " (النساء، 29- 30)، وثبت في الصحيحين عن النبي عليه الصلاة والسلام انه قال: " من قتل نفسه بحديدة، فحديدته في يده يُلجم بها بطنه في نار جهنم خالدا مخلدا فيها أبدا، ومن قتل نفسه بسُم فسمّه في يده يتحسّاه في نار جهنم خالدا مخلدا فيها... الحديث).

وتتجلى قيمة الحياة الإنسانية في قوله تعالى بعد بسم الله الرحمن الرحيم:"من أجل ذلك كتبنا على بني إسرائيل أنه من قتل نفسا بغير نفس أو فساد في الأرض فكأنما قتل الناس جميعا ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعا..." (المائدة، 32).

6- المقاربة الفلسفية لمشكلة الانتحار:

من بين المدارس الفلسفية التي تناولت مشكلة الانتحار نذكر المدرسة الرواقية، وهي مدرسة مادية، ففي معرض حديثها عن الأخلاق، ترى أن الطبيعة تسير بصورة عمياء وتلقائية في عالم الجماد والنبات، بينما تسيطر عليها الغريزة والشعور في عالم الحيوان، أما بالنسبة للإنسان فيحكمها العقل الذي يجعلنا ندرك أننا جزء من الطبيعة الكلية، وإذا أراد الإنسان أن يعيش في وفاق مع الطبيعة فما عليه إلا أن يخضع إرادته للإرادة الكلية، يقول يوسف كرم:"الحكيم أو الإنسان الكامل هو الذي يعلم أن كل شيء في الطبيعة يقع بالعقل الكلي أو بالإرادة الإلهية أو بالقدر، فيعتبر ميوله وظائف لتحقيق هذه الإرادة الكلية، ويقبل مفاعيل القدر طوعا..فإذا ابتلي بمرض أو أصابته مصيبة، آثر ذلك لعلمه انه مقدر عليه، فيتوفر له الخير الحقيقي في كل حال.اللهم إلا إذا نزلت به فوادح لا تطاق، فله حينئذ أن ينتحر ويتخلص من حياة لم يعد فيها شيء مطابقا للطبيعة".(5)

يفهم من الفقرة السابقة أن الانتحار الذي يقبله الرواقيون هو ما يسمى انتحار الكرامة، بالرغم من أن فلسفتهم تحرم الانتحار وتعتبره منافيا لغريزة حب البقاء، ذلك الميل الطبيعي الذي جبل عليه الإنسان.

وإلى جانب المدرسة الرواقية نجد المحاولة الأفلاطونية في محارة فيدون يعتقد أفلاطون بعد أن يجعل الإنسان يتساءل كما يتساءل عن القضايا والمسائل التي تهمه، يتساءل كذلك وربما أكثر عن الظروف والملابسات التي تدفع البعض إلى الانتحار، وعن الناس الذين تكون عندهم الموت أفضل من الحياة.

يرى أفلاطون أن النفس هي من وضع الآلهة، بل نحن البشر من ممتلكات الآلهة، وبالتالي لا يحق لنا التصرف فيها. يقول أفلاطون:"أما فيما يخص هؤلاء الذين يرون أن الموت أفضل، فلربما بدا لك عجيبا أنه ليس من العدل ولا من المسموح به ولا من علامات التقوى في حالتهم أن يفعلوا في أنفسهم بأنفسهم فعلا حسنا(بأن ينتحروا) بل أن يكون عليهم أن ينتظروا محسنا آخر إليهم من غيرهم"(6).

وبالرغم من أن أفلاطون يدين الانتحار إلا أن هناك حالات استثنائية يقبل فيها الانتحار، مثل حالة الإدانة كما حدث بالنسبة لسقراط أمام المحكمة التي قضت عليه بالموت، واتهمته بأنه يفسد عقول الشباب. يقول أفلاطون على لسان سقراط وهو يحاور كيبيس:"وأنت (يقصد كيبيس) إذا حدث وقتل أحد ممن تملك نفسه بنفسه، وبدون أن تظهر علامة منك على أنك تريد له أن يموت، ألن تغضب منه في هذه الحالة وتعاقبه إن استطعت إلى عقابه سبيلا؟".

وبعد أن يرد عليه كيبيس بالإيجاب يستطرد سقراط قائلا:"إذن، تحت هذا الضوء، ربما لم يكن غير معقول القول بأنه لا يجب أن يبادر المرء بقتل نفسه بنفسه قبل أن يقضي الإله بضرورة ما كتلك التي أمامنا اليوم". (الضرورة المشار إليها هي حكم المحكمة على سقراط بالموت).

إن تحريم الانتحار في نظر أفلاطون يرتكز على أساسين اثنين هما:أولا أن كل إنسان يوجد في موقع لا يحق له أن يغادره، كما يهرب العبد من سيده، ويموت بغير إرادته، وثانيا وقياسا على السبب الأول فإن ذلك يصدق على الإنسان الذي يستبق الإرادة الإلهية ويضع حدا لحياته، متجاهلا الرعاية الإلهية التي نحن ملكا لها.وبناء على ما سبق ينبغي على الإنسان انتظار ما تقرره المشيئة الإلهية قبل أن يؤذي نفسه بطريقة متعمدة.

إن الإنسان هو الكائن الوحيد الذي يعيش في هذا الوجود وهو الذي يعي انه سيموت، و أن الموت هي إحدى إمكانيات الإنسان و آخرها كما يرى ذلك سارتر، وهذا بعكس الحيوانات الأخرى التي تعيش داخل مجالها ألإدراكي لا وعي و لا نزوع، بينما يعي الإنسان هذه الحقيقة ابتداء من مرحلة المراهقة أو ربما قبل ذلك،

تقول ليلى تونسي:"بالنسبة لكارل يسبرس هناك شكلين مختلفين من الخوف: الخوف من المرض الذي يعني المعاناة الجسدية، والخوف من الموت"(7).

إن المعنى الحقيقي للوجود في نظر ياسبرس لا يتضح للناس إلا في الفترات العصيبة والصدمات الحادة كالمرض والموت.

أما بالنسبة لمعاناة المرض الذي يعني مقاومة الموت، فإنه يمكن للإنسان أن يشفى ويخرج من الحالة غير الطبيعية ليعود إلى الحالة الطبيعية، يعني من المرض إلى الصحة، أما بالنسبة للخوف من الموت فإن العلوم ليس بمقدورها أن تقدم جوابا للإنسان، لأنها تقف عند حدود التفسير ولا تطرح سؤال المعنى، بينما سؤال المعنى هو سؤال ملازم دائما للإنسان ولذلك كانت الفلسفة وحدها هي التي تستطيع ذلك.ولما كان الإنسان مخلوق من أجل أن يموت كما يقول هيدجر، فما عليه إلا أن يضع الموت ضمن جدول أعماله اليومية.

وإذا كان الناس لا يعرفون إلا الأشكال المباشرة للانتحار كأن يضع الإنسان حبلا حول عنقه، أو يصوب بندقية أو مسدسا نحو رأسه، أو يتناول مادة سامة تقضي عليه، أو غير ذلك من طقوس الانتحار المباشرة، فإن بعض الفلاسفة أمثال برديائيف يشيرون إلى شكل آخر من أشكال الانتحار لا يقل خطورة عن الأشكال الأولى، ألا

هو الانتحار الرمزي الناتج عن حالة العزلة، التي تهدد الإنسان، على اعتبار أن الإنسان لا يحقق وجوده إلا بالآخرين ومعهم. يقول برديائيف:"فالوعي الذاتي يقتضي الشعور بالآخرين، فهو اجتماعي في أعماق طبيعته الميتافيزيقية، و مادامت حياة الإنسان تعبيرا عن ألانا فإنها تفترض وجود الآخرين ووجود العالم، ووجود اللّه، وانعزال ألذات انعزالا مطلقا ورفضها الاتصال بأي شيء خارجها أو "بالأنت"عبارة عن انتحار"(8).

7- حول مسألة الموت الرحيم:

تثار اليوم في الغرب، مسألة فكرية وأخلاقية وقانونية أمام الإنسان، أسالت الكثير من المداد بين المؤيدين لها والمعارضين، من رجال الطب والقانون والدين، ألا وهي مسألة الموت الرحيم، أو الموت الجيد.

إن الإنسان لا يعيش دائما في صحة جيدة وكاملة، بل هو معرض للإصابات والحوادث ويهدده المرض باستمرار، وتتفاوت حالات الإصابة بالمرض من إنسان إلى آخر، إلا أن البعض قد يشتد عليه المرض وقد يطول، كما وقد يصبح ميئوسا من علاجه، فهل في هذه الحالة يجب مساعدته على الموت؟ وكيف يكون ذلك؟وما موقف الدين والقانون والأخلاق من كل ذلك؟

لقد شرعت بعض الدول الغربية في سن تشريعات وقوانين تسمح بوضع حد لحياة المريض المتألم الميئوس من شفائه لمساعدته على الموت بناء على رغبته أو رغبة أقاربه كما هو الحال في هولندا.

كما تنشط جمعيات في هذا الإطار في الولايات المتحدة الأمريكية، بالرغم من أن الديانات السماوية تحرم هذا الفعل وتجرم صاحبه، لكن التساؤل المطروح هو:ألا يمكن أن يتحول هذا السلوك إلى مطلب شرعي خلال السنوات القادمة، بحجة احترام الحرية الفردية وحقوق الإنسان؟وما تداعيات ذلك على الإنسان في الوقت الذي تتقدم فيه الأبحاث الطبية والوسائل التقنية؟وكيف يتحول الطبيب الذي يحارب المرض من أجل المريض لصالح الحياة والأمل إلى مجرد وسيط مرتزق بين الموت والمريض؟.

8-حول ارتفاع نسبة حالات الانتحار في العالم

تشير الإحصائيات التي تنشرها الوكالات التابعة للأمم المتحدة(9) إلى زيادة حالات الانتحار في العالم، وقد تضاعف هذا العدد خلال الخمسين سنة الأخيرة، وتأتي الدول الشيوعية والتي كانت تابعة للاتحاد السوفيتي سابقا على رأس القائمة حيث نجد الإحصائيات العامة في العالم تشير إلى 16 حالة انتحار لكل 100ألف نسمة بمعنى حوالي حالة انتحار واحدة كل 40 ثانية.أما الإحصائيات الجزئية الخاصة ببعض الدول فهي كما يلي:1

البلد	نسبة الانتحار لكل 100.000 نسمة
ليتوانيا	42.0
روسيا	37.4
بيلوروسيا	.35
أستونيا	33.2
هنغاريا	32.1
سلوفيتيا	30.9
أوكرانيا	29.4
كازاخستان	28.7

أما فرنسا فتشهد سنوياً مائة وخمسة وستين ألف محاولة انتحار، تنجح منها اثنا عشر ألفاً، حسب بيانات سنة 1997، كما تطالعنا الصحف يوميا عن أخبار مروعة لحالات الانتحار في العالم، حيث تتحدث عن نسب مخيفة لهذه الظاهرة.

9- حول ضرورة إنشاء مركز وطني:

ومن مبدأ أحسن علاج هو الوقاية، وكذلك باعتبار الإنسان قيمة لا توازيه أي قيمة، يجب التفكير في إنشاء مركز وطني، يتولى التكفل بالأشخاص الذين لديهم رغبة أو يفكرون في القيام بعملية الانتحار، أو الذين تبدو عليهم انحرافات سلوكية خطيرة، للوقاية من تزايد حالات الانتحار وخفض معدلاته لاسيما بين فئات الشباب، وهي الشريحة الاجتماعية الأكثر تعرضا للانتحار، كما هو الحال في دول العالم، مثل بريطانيا، كندا، الصين والولايات المتحدة الأمريكية، لأن الدولة هي التي تملك شرايين المال من جهة،ومن جهة أخرى يحتمل أن تقع الأسرة في الخطأ، أو تتخلى عن وظائفها ومهامها تجاه أفرادها بسبب العادات الاجتماعية أو الفقر. وإلى جانب ظاهرة الانتحار يمكن لهذا المركز أن يضطلع بمهام أساسية أخرى في دائرة اختصاصه كالمخدرات والعنف والسلوكات الشاذة وغيرها، لتوفير حماية اجتماعية ورعاية نفسية أكبر، مما يترتب عنه تحصين قوي للأشخاص ضد مختلف الآفات والمظاهر السلبية ذات الانعكاسات الخطيرة على الحياة الاجتماعية. ومن المهام الأساسية والأوليات التي يعمل المركز على تحقيقها هي:

محاولة التعرف على الأشخاص الذين يفكرون في الانتحار أو لديهم شعور بذلك، أو تبدو عليهم ميول فعلية للانتحار، حتى يقدم لهم يد العون و المساعدة والعلاج المناسب في الوقت المناسب، وهي الأمور التي هم في حاجة إليها، قبل وقوع المحظور.وعدم الاكتفاء بالبحث عن أسباب الانتحار وتعدادها وتصنيفها على المستوى النظري دون النزول إلى الواقع الميداني.

العمل على توعية الأشخاص الذين يعانون من المشاكل النفسية والاجتماعية و الصحية، وتزويدهم بثقافة نفسية واجتماعية، وتوعيتهم عن خطورة استعمال المخدرات والمشروبات الكحولية والأضرار الصحية والمادية والنفسية الناجمة عنها. وتقديم المساعدة العاطفية والمادية إليهم عندما يحتاجونها.

إنّ الكثير من هؤلاء الأشخاص تبدو لهم كل الطرق مسدودة، ولا يعرفون أين يتجه بهم قطار الزمن، ولا أين يجدون المساعدة، ومن ثم لا يرون إلا حلاّ واحدا أمامهم هو الانتحار، أو الانحرافات السلوكية التي تكون لها تداعيات خطيرة على الفرد والمجتمع.

حماية الفرد من المحيط، ومساعدته على القيام بدوره الكامل كعنصر فعال في المجتمع، وتوعيته بأن ليس من حقه أن يحرم المجتمع من وجوده. وضرورة أهمية وجود إعلام واع يتولى مهمة توعية وتنوير المجتمع بخطورة ظاهرة الانتحار وتحدياتها، في عصر أصبح فيه العالم قرية صغيرة تتدفق فيها المصائب من كل اتجاه. وكذا دراسة أحوال البيئة الاجتماعية التي ولد ونشأ فيها الإنسان لأن كل ذلك يساهم في زيادة نسبة احتمال إقدام الشخص على ممارسة العنف ضد نفسه من خلال الانتحار.

ضرورة التأكيد على أهمية موضوع الانتحار، كظاهرة نفسية واجتماعية خطيرة، لا يزال يكتنفها كثير من الغموض والتعقيد وصعوبة التحكم فيها، وأهمية دراستها من مختلف جوانبها بالأساليب والطرق العلمية، ولا يكون ذلك إلا من قبل ذوي الاختصاص.

الدراسة العميقة لمعرفة القوة الحقيقية التي تدفع المنتحر إلى هذا السلوك، حيث يلاحظ على المنتحر انه يتصف بأن لديه شيء داخلي قوي يوجهه نحو هدف واحد ووحيد هو الموت. وتتجلى هذه القوة بشكل واضح فيما يطلق عليه الانتحار الواعي من أجل الهدف، والمقدمون على هذا النوع من الانتحار يحملون في طياتهم رغبة الموت والإيمان بضرورته من أجل الوصول إلى أهدافهم ولكنها رغبة غير ظاهرة تماماً، بل حتى الموت عند البعض منهم أصبح لا يتعلق بفرد واحد وإنما يتحول هو بنفسه إلى قنبلة بشرية تحصد معها أرواحا كثيرة لم تكن تنتظر الموت.ليجرها معه إلى المقبرة، إلى عالم الصمت والنسيان.

إن الانتحار مهما تعددت أسبابه، وظروفه، و طقوسه، وأشكاله، يبقى ظاهرة معقدة بدليل تعدد التساؤلات بعد رحيل المنتحر الذي يدفن سره معه تاركا وراءه علامات الاستفهام التي تحيل بدورها إلى تأويلات

كثيرة.حيث يبقى دائما سؤال المعنى قائما ومن دون جواب وهو هل الشخص المنتحر قد حقق مبتغاه، بمعنى هل وصل بأناه إلى حالة الارتياح؟ ولصالح من تنازل عن حياته؟ هل المنتحر قد يئس من الحياة أم هو شخص لا يريد ولا يحب اليأس، كما يقول ميشال كورني(10).

ثم إن العلوم لا تستطيع أن تجيب على مسألة ما بعد الانتحار، مادام أن مسألة ما بعد الطبيعة لا تدخل في عداد العلم الوضعي التجريبي، ولذلك لا أحد يدعي أن هذه المشكلة أصبحت محددة تحديدا صارما وواضحا سواء على المستوى العلمي أو على المستوى الفلسفي.

ولا يخفى عن البال، أن أي إنسان معرض للمشاكل الطارئة والظروف الصعبة المؤقتة، ولآفات الزمن المتحول، ومن ثم يبقى الصبر والإيمان من أهم الأسباب التي تحافظ على الاستقرار النفسي، والتوازن الروحي للإنسان، والقدرة على مواجهة ألازمات وتجاوزها بصبر و تجلد وثقة في الله و في النفس.

وبناء على ما سبق، يجب أن نعرف بأن الحلول للمشاكل موجودة وممكنة، ويجب على الإنسان ألا يتعجل الحل، كما أنه لا بديل له عن الصبر عند الشدة، وأن الحلول لا تتولد إلا من عمق ألازمات، والأمر لا يتسع إلا إذا ضاق.

وعليه لا بد من مواجهة المشاكل بدل الاستسلام لها أو الهروب منها، ومن ثم يبتعد الإنسان عن التفكير في إعدام نفسه بنفسه أمام ضعف لحظي، أو انهيار نفسي، دون مبرر.

ومع ذلك يبقى الانتحار وهذا في حدود المعطيات المتوفرة يحكمه مثلث الكآبة كما يسمى عند علماء النفس، ممثلا في ثلاثة حالات هي:

1. نظرة سوداء للذات.
2. نظرة قاتمة للمحيط.
3. نظرة قاتمة عن المستقبل.

ولما كانت هذه الثلاثية سلبية في محتواها ومضمونها، فإنه يترتب عنها كذلك نتائج سلبية، تتمثل في العدوان على ألذات، ورفض الواقع مادام هذا الواقع غريبا عن المنتحر ولا يطيقه، ومفارقة الحياة بطريقة إرادية. وهكذا يكون المنتحر ما هو إلا شخص جاهل بطبيعة الحياة، وقدسية النفس، ينهى مشروع حياته نهاية مأساوية، ويعتدي على شيء ليس ملكه الخاص، في نفس الوقت الذي يحكم فيه على أهله و ذويه بالأسى والحزن الأبدي.

إن المنتحر حينما يقايض الوجود بالعدم، ويتوجه نحو الموت التي هي نفي الحياة، بدل الكفاح من أجل الاستمرار في الحياة التي هي موت الموت، فإنه يصعب الحياة على من تركهم من بعده مهما كان دوره ووظيفته في الأسرة، ويزيد في شعورهم بالوحدة والألم.

إن النظرة الموضوعية تكشف أن الحياة ليست كلها آلام كما أنها ليست كلها لذات، وليست كلها خيرا كما أنها ليست كلها شرا، وعليه لا ينبغي أن يلغي الإنسان نفسه من خارطة الوجود، لأسباب تافهة، أو حوادث طارئة، أو أخطاء يرتكبها الآخرين، وهو ليس مسؤولا عن تبيعاتها الاجتماعية والقانونية والأخلاقية، فالانتحار لم يكن في يوم من الأيام حلا للمشاكل بقدر ما هو هروب منها و خيانة للحياة،وللأقارب.

ما أريد أن أخلص إليه في النهاية، هو أن التقليل من المشاكل وألا سباب التي يمكن أن تقود إلى الانتحار أمر ممكن، إذا خلصت النوايا وصدقت الأعمال، من خلال الاهتمام أكثر بالإنسان، لأننا أمام أرواح بشرية تزهق بغير حق، ولاشك أن الاهتمام المتزايد بالإنسان سيقضي لا محالة على الرغبة في الموت.

ولا يسعني في النهاية إلا أن أذكر هذا البيت الشعري الذي يلفت انتباهنا إلى أهمية ألأمل في الحياة إذ لا يأس مع الحياة، يقول الشاعر:

أمني النفس بالآمال أرقبها ما أضيق العيش لولا فسحة الأمل

الهوامش:

(1) ـ كير كجرد، تأليف فريتيوف برانت، ترجمة مجاهد عبد المنعم مجاهد، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط1، 1981، ص129

(2) مهى سهيل المقدم، محاكمة دوركايم في الفكر الاجتماعي العربي، بيروت، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، سنة 1992، ص ص 35 .36

(3)) مهى سهيل المقدم، المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

(4) - روجي غارودي، نداء إلى الأحياء، ترجمة الدكتور ذوقان قرقوط، دار دمشق للطباعة والنشر، ط1، سنة 1981، ص:40.

(5) – يوسف كرم، تاريخ الفلسفة اليونانية، دار القلم، بيروت لبنان، ب ط، ص:239 ـ 240.

(6) ـ أفلاطون، فيدون، ترجمة وتقديم عزت قرني، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، ط2، سنة2001، ص:118.

(7) .Tenci Lila, *De La Mort, Revue Algérienne de Philosophie*,N°1, p69.

(8) نكولاي برديائيف، العزلة والمجتمع، ترجمة فؤاد كامل، الهيئة المصرية العامةللكتاب، سنة1982، ص 91

(9)http:/www.berfrienders.org/info/statistics.php /http://www.who.net/mental.health/en

(10)_ Michel Cornu, Le Suicide est-il un problème htt://www.pinel.qc.ca/psychiatrie_violence/